التّحوُّلات السِّياسيَّة في الدَّولة العثمانيَّة خلال النِّصف الثَّاني للقرن 13ه/ 19م من خلال كتاب "سرُّ مملكة" لسليم سركيس

Political Transformations in the Ottoman Empire During the Second Half of the 19th Century Through the Book of "Secret of Kingdom" by Selim Sarkis

حسن بربورة

جامعة يحي فارس المدية

Barbora.hacen@univ-medea.dz

مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور، جامعة يحي فارس

أ.د/الغالي غربي

Kaligherbi@yahoo.fr

مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور، جامعة يحي فارس

تاريخ الاستلام: 2020/10/04 تاريخ القبول: 2021/01/20

ملخص:

تهدف هاته الدِّراسة ومن خلال كتاب "سرُّ مملكة" لمؤلّفه سليم سركيس، إلى رصد أهم التَّحوُّلات السِّياسيَّة في الدَّولة العثمانيَّة، خلال النِّصف الثَّاني من القرن 13ه/19م، تحديدًا فترة حُكم السُّلطان عزيز خان (1277-1293ه/1861-1876م)، كما تستعرض علاقة الدَّولة العثمانيَّة بالدُّول الأوربيَّة التي كانت تضغط عليها لاستكمال الإصلاحات، وتحقيق النَّهضة المزعُومة على النَّهج الغربيّ والفكر الأوربيّ والمبادئ العلمانيَّة، وتتحيَّن الفُرصة لإضعافِها والقضاءِ عليها رغم مُساعداتها الظَّاهرية.

ومن أهمّ النتائج التي توصَّلت إليها الدِّراسة، ازدياد حركة التَّغريب والعَلْمَنَة في الدَّولة العثمانيَّة عهد السُّلطان عبد العزيز، مع فشل جهوده ومحاولاته الإصلاحيَّة على النّمط الأوربي.

الكلمات المفتاحية: الدَّولة العُثمانية؛ القرن 13ه/19م؛ التّحوُّلات السِّياسيَّة؛ سرُّ مملكة؛ سليم سركيس.

Summary :

This study aims, through Selim Sarkis's book "Secret of Kingdom" to spotlight the political transformations together with the social changes in the ottoman empire during the reign of sultan Abdul-Aziz 1861-1876, He study also reviews the relationship of the ottoman empire with the European countries that were pressuring it to complete the reforms and achieve the supposed renaissance according to the western approach and the European perspective, following the secular principles, which aimed to weaken and eliminate the ottoman empire despite the apparent assistance.

One of the most important findings of this study is the increase of westernization and secularization during the reign of sultan Abdul-Aziz with the failure of his effort and attempts towards reform on the European style.

Keywords: The Ottoman Empire; 19th Century; Political Transitions; Secret of Kingdom; Selim Sarkis.

أولا. مقدمة:

تعرَّضت الدَّولة العثمانيَّة خلال النِّصف الثَّاني من القرن 13ه/19م، إلى مزيدٍ من الضُّعف والتَّفكُّك، نتيجة أوضاعها الاقتصاديَّة المتدهورة، ما جعلها عُرضةً أكثر لأطماع الدُّول الأوربيَّة، وهذا رغم استكمال السُّلطان عبد العزيز (1277-1293ه/1861-1876م) لجهود الإصلاح السِّياسي والعسكري الَّتي بدأها السُّلطان سليم الثَّالث (1203-1222ه/1789-1807م)، وتجسّدت أكثر في عهد والده السُّلطان محمود الثَّاني (1223-1255ه/1809-1839م)، وأخيه السُّلطان عبد المجيد الأوَّل (1255-1277ه/1839-1861م)، وهي الإصلاحات التي كرَّست حقوقًا أكثر للأجانب، ليجد عبد العزيز نفسه مُحاطًا بجملةٍ من التَّحديات الدَّاخليَّة والخارجيَّة.

كما شهدت الدَّولة ضغطا أوربيا كبيرا فتح الباب لنشر المعارف والأفكار الغربيَّة، ومنحت مبادئ الحداثة الأوربيَّة منذ معاهدة باريس 1272ه/1856م، المجال بصورةٍ أكبر لتدخُّل الدُّول الأوربيَّة الاستعماريَّة، فاتَّسع نُفوذ القناصل والسُّفراء الأجانب، وزادت جهودهم في حركة التَّغريب والعلمنة، وبذلك تُعدُّ فترة حكم السُّلطان عبد العزيز مرحلةٌ جدُّ هامَّةٍ في التَّاريخ العثماني، كرَّسها لإعادة الاعتبار للدَّولة وتقوية كيانها داخليًا، من خلال سلسلة الإصلاحات، أمَّا خارجيًا فاتّبع سياسة تقوم على تثبيت الوجود العثماني في الولايات العربيَّة من جهة، والسَّعي لإقامة علاقاتٍ حسنةٍ مع الدُّول الأوروبيَّة من جهةٍ أخرى، وذلك من خلال الزِّيارات التَّاريخية التي قادته إلى مصر وأوروبا، لكن نهاية فترة حكم السُّلطان أسالت الكثير من الحبر، واختلفت الأقوال وتباينت حول قضية خلعه، ومن ثمَّ حادثة انتحاره أو مقتله!

لذا تطرح هاته الورقة البحثيَّة، ومن خلال دراسة وصفيَّةٍ لكتاب "سرُّ مملكة"، الإشكاليَّة التاليَّة: ما هي أبرز أسباب ومظاهر التَّغريب الفكري والسِّياسي في الدَّولة العثمانيَّة التي رصدها كتاب "سرُّ مملكة" عهد السُّلطان عزيز خان؟ وما انعكاسات ذلك على واقع الدَّولة العثمانيَّة خلال النِّصف الثَّاني من القرن 13ه/19م؟

ثانيا. تقديم المصدر (المؤلف والكتاب): سليم شاهين سركيس، صحفي وأديب لبناني، ولد ببيروت[1] في 4جمادي الآخرة 1286/ 11سبتمبر 1869 م، لأُسرةٍ عربيَّةٍ مسيحيَّةٍ، تلقَّى تعليمه الأول بمدرسة "عين زحلتا"، حيث بدأ ينشر مقالاته في سنٍّ مُبكِّرةٍ في مجلة "الجنان"، والتي كان يرأس تحريرها سليم البستاني[2]، ثم انتقل إلى المدرسة الوطنيَّة ليلتحق بعدها مباشرةً بالعمل الصُّحفي بجريدة "لسان الحال"، حيث عمل بها لمدَّة ثمان سنواتٍ ما عرَّضه للرقَّابة التركيَّة[3]، واضطرّه السَّفر إلى فرنسا سنة 1309ه/1892م، حيث التقى هناك بعض رجال جمعيَّة (تركيا الفتاة)[4]، وأصدر معهم جريدة (كشف

النِّقاب)، لينتقل بعدها إلى لندن، حيث أنشأ جريدة (رجع الصَّدى)[5] والتي لم تُعمِّر طويلًا، ويستقرَّ بعدها في الإسكندرية بمصر سنة 1311هـ/1894م، حيث أصدر جريدته الأسبوعيَّة (المشير) التي أثارت بنقدها اللَّاذع حفيظة الدَّولة العثمانيَّة[6]، فحكمت عليه بالإعدام غيابيًا.

بعدها ارتحل إلى الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وأقام بها خمس سنواتٍ، وأنشأ فيها عدَّة صُحفٍ منها (الرّاوي) ثم (البُستان)، كما ألّف كتابه (غرائب المكتُوبجي) والذي تميّز بنقدٍ جريءٍ وشديدُ اللّهجة للرَّقابة العثمانيَّة على الصُّحف، قبل أن يعود إلى مصر بعد إلغاء حُكم الإعدام سنة 1323هـ/1905م ويُصدر مجلة (سركيس)، إضافةً إلى تحريره في بعض الصُّحف المصريَّة الكبرى كالمؤيّد والأهرام، إلى غاية وفاته بالقاهرة في 17 رجب 1344هـ/ 31 جانفي1926 م[7]. خلَّف سركيس إنتاجًا شعريًا وأدبيًا غزيرًا، والقليل من الأعمال التّاريخية منها: (سرُّ مملكة)، (الأُمراء آل لطف الله في سنة 1920م)، (غرائبُ المكتُوبجي)[8].

أمَّا الكتاب، فقد اختار له مؤلفه عنوان (سرُّ مملكة)، لأن تاريخ السّلاطين العُثمانيين كما يرى كُلُّه أسرارٌ غامضةٌ، وقد صدر بدايةً باللغة الفرنسيَّة ثم تُرجِمَ إلى الانجليزيَّة، لكن الإدارة العثمانيَّة كتمت أمر الكتاب آنذاك[9]، بعد أن ابتاعت أغلب النُّسخ لكن صَعُبَ عليها ابتياع جريدة (المشير) التي كانت تصدر منذ سنة 1311هـ/1894م[10]، والتي نَشَرت فُصُولَ الكتاب، ومن خلالها أُعِيدَ نَشرهُ باللُّغة العربيَّة، ويتناول (سرُّ مملكة) في جزئه الأوَّل (تاريخ حياة عبد العزيز وقتله، ولايةُ مراد وخلعه، محاكمة مدحت باشا وأعوانه)، وقد قُدّم كهديةٍ إلى حضرة ولي عهد السَّلطنة العُثمانية محمد رشاد الدين أفندي[11]، "ليعرف ماضي دولته، فيحكم كيف يجب أن يكون مستقبلها"، أما الجزء الثّاني، والذي يعتبره المؤلف أكثر أهميةً من الجزء الأول[12]، فيتناول حياة السُّلطان عبد الحميد وكيفية معيشته وإسرافِهِ، ومعيشةُ الحرم السُّلطاني ودسائس البِلاط، والسُّلطان مراد وكيفية خلعه، ومعيشةُ السَّلاطين في قُصُورِهِم وخَلَواتِهِم وغير ذلك من الأسرار، وقد جاء الجزء الأول –موضوع الدِّراسة- ضمن حوالي 160 صفحة، وطُبع في مصر سنة 1312هـ/1895م[13]، تحت إشراف مدير جريدة المشير "أكودج"، كما طُبع ثانيةً بمطبعة السَّلام سنة 1315هـ/1897م، ويتضمَّنُ فهرس الكتاب بعد الإهداء والمقدّمة، مجموعةً من الفصول بدايةً بالسُّلطان عبد العزيز، إمبراطورة فرنسا في الأستانة، الثورة على عبد العزيز، سقوط عبد العزيز، جلوس مراد، آخر أيام عبد العزيز، موت مهري هانم، حسن الشركسي[14] وهجومه على الوزراء، ماذا جرى في دمشق، مجموعة قصائد معارضة للحكم العثماني (القصيدة الحائيَّة، الرائيَّة، البائيَّة، الطّرابلسيَّة)، حادثةٌ في دمشق الشَّام، محاكمة مدحت باشا، السُّلطان مراد، معاملة عبد العزيز، اجتماع أوربي بمراد، تنصيب

السُّلطان مراد، عبد الحميد الثَّاني، مفاوضة مع مراد، ويختتم الكتاب بمكتوب (رسالة) السُّلطان مراد للسُّلطان عبد الحميد والتي يدعوه فيها للعودة إلى العمل بالدستور.

ثالثا. السُّلطان عبد العزيز (1277-1293هـ/1861-1876م): "السُّلطان عبد العزيز"، هو عنوان الفصل الأوَّل من الكتاب، والذي يُقدِّمُهُ المؤلف بألقابه التي تعوّدت الصُحف العثمانية أن تُلقّبه بها (أميرُ المؤمنين، وسُلطان السَّلاطين، ظِلُّ الله على الأرض، وخليفةُ رسُولُ ربِّ العالمين، خَاقَان البَحرينِ وسُلطان البَرّين..)، كان رجلاً قويًا، كما كان في شبابه طاهرًا مُجتهدًا عادلاً، حيث كان يرأس بذاته مجالسُ شُورى الدّولة، ويحرصُ على مصالح الأمّة، ما جلب له ثَناء الناس[15]، هذا التَّقديم يفسحُ المجال لاحقًا للمؤلف، من أجل تقديم نقدٍ لاذعٍ وصريحٍ، دون أن يُقدّم أسباب هذا التحوُّل في شخصيَّة السُّلطان، الذي وكما يقول: "تَحدّث النّاس بسلوكه، وخُصوصًا رغبته الفائقة في المال والإسراف المتناهي[16]، الذي كان يستعملهُ لتبذيره"[17]، حيث كان مُولعًا بتشييد القصور وجمع الحيوانات، إضافة لآلات الطرب (كالبيانو)، والمركبات الكثيرة من أوربا، كما كانت تتملكه هواجسٌ أحيانًا، كالخوف من النّاس، وسوء ظنّه بجميع أفراد بلاطه. أما عن حياته العائلية، فقد كانت له زوجةٌ واحدةٌ[18] تزوّجها بموجب الشَّرع، رغم أن الوالدة السُّلطانة كانت تُقدّم له كل عيد أضحى جاريةً حسناء كعادة العثمانيين، إلَّا أنه كان يقبل تلك الهديّة تقليدًا فحسب، ويدفعها لزوجته لاستخدامها في القصر، وعن أهم أعماله[19] فقد أنشأ المدارس قُربَ كُلِّ جامعٍ، وسهَّل التّعليم المجاني للرعايا اليونان والأَرمَن، وساعده في ذلك الصَّدرين الأعظمين[20] فؤاد باشا[21] صاحب الوصيّة الشّهيرة[22] سنة 1285هـ/1868م-وأمين علي باشا[23].

وفيما يخصُّ زيارات السُّلطان خارج حدود الدَّولة العثمانيَّة، فقد دعاه الوالي الجديد إسماعيل باشا[24]، لزيارته بعد أن قدّم له واجبات الشُّكر وأهداه يختاً انكليزيَّ الصُّنع. فتوجّه عبد العزيز إلى مصر في 13 شوال 1279هـ/03 أفريل 1863م، واستُقبِل رسميًا وشعبيًا، كما ألقى خطابًا في الحفلة الرسميَّة التي أقيمت في القلعة، أَثنَى فيه على إسماعيل باشا، وقلّده أرفع أوسمة الدَّولة العثمانيَّة وهو وسام (المجيديَّة)، ومنحة صفة (خديوِ) مصر[25]، واصطحب السُّلطان في زيارته مراد أفندي خوفًا من المؤامرة، ولم يلبث أن غضب عليه، وحَجَرَ عليه في القصر بعد العودة لمدَّة ثلاثة أشهر[26]، وقد كانت زيارة السُّلطان إلى مصر، محاولةٌ لإشراك الخديوِ إسماعيل، في تذليل المصاعب الماليَّة للدَّولة العثمانيَّة[27]، كما يجتهد بعض المؤرخين في ذكر أسباب أخرى لتلك الرِّحلة منها، محاولة فؤاد باشا التَّقرب من السُّلطان، وإبعاده عن حاشيته ولو لأيام، إضافة لتوثُّق العلاقات الودّية بين مصر ومركز الدَّولة أيام صدارة كامل باشا[28].

من جهةٍ أخرى فقد شهدت الدَّولة العثمانيَّة عهد السُّلطان عبد العزيز، دخول الكثير من العادات الأوربيَّة، أهمها استبدال اللِّباس التُّركي الأصيل (القُفطَان والعَمَامَة) بالثَّوب الإفرنجي الرّسمي، والطَّربُوش الأحمر (العزيزي)، نسبةً إلى السُّلطان عبد العزيز، وقد لاقت تلك العادات، وحتى الزّيارة الخارجيَّة الثَّانيَّة التي عزم السُّلطان القيام بها إلى أوربا بعد أربع سنوات من زيارة مصر، رضًا وترحيبًا واسعًا لدى الرَّأي العام باستثناء الوالدة السُّلطانة. والملاحظ أن سركيس لا يُقدّم تفاصيلًا لرحلة السُّلطان إلى أوربا[29]، لكنه يذكر عودته منها في 22 ربيع الأول 1284هـ/24 جويلية 1867م، والتي تزامنت مع ثورة كريت[30] (نهضة كريت كما يصفها)، وينقل استياء السُّلطان من الحداثة الأوربيَّة، التي قال بشأنها في حواره مع الصَّدر الأعظم: "أنا راضٍ مزيد الرّضى، بل أشكُرُ الله تعالى أنَّني غير أعمى البصيرة نَظِير مُلُوكِ أوربا.. رأيت المدُن الأوربيَّة حَسَنَةَ البِنَاءِ، ولكنَّها خاليةٌ من جمال مناظر الأستانة.. وكُلُّ إنسانٍ هُناك مُنهَمِكٌ في حَشْدِ المال، والنّساءُ معرُوضَاتٌ في المراقِصِ والاستقبالاتِ، تَعَرُّضاً يُوجِبُ الخجل"[31]، وفي مقابل الزّيارات الخارجيَّة للسُّلطان، فقد أدَّت إمبراطورة فرنسا "أوجيني"Eugenie، زيارة إلى استانبول ممثلة لنابليون الثالث، واستقبلها السُّلطان بلباس مارشال فرنسي في قصره في "بيكلربك"، الذي تزيّن على نسق قصر "التويلري" بفرنسا استعدادًا لاستقبال الملكة وبحضور سفراء الدُّول[32].

لقد انتشرت مطالب أعضاء "تركيا الفتاة"، بعد استيائهم من إسراف السُّلطان عبد العزيز، وترافق ذلك مع موت فؤاد باشا، فخلفه محمود باشا[33] الذي كان خاضعًا لروسيا في أفكاره وعرف بهدئته لمخاوف السُّلطان وتذكيره بالدّعم الرُّوسي، كما ساهم نفي المصلحين (تركيا الفتاة)، وحادثة مذبحة قُنصُلَي فرنسا وبروسيا في سالونيك، في دفع الألُوف من أعضاء الحزب العمومي وعشرون ألفًا من السَّفطا[34] وعُموم الشَّعب، للتَّظاهر ضدّ السُّلطان (عند مدخل قصر طولمة بهجة) وتقديم عريضةٍ، تطالب بفصل الصَّدر الأعظم محمود باشا وشيخ الإسلام (حسن فهمي أفندي) المتهمين بالتراخي ومحاباة الرُّوس[35]، وذلك بعد أن حاورهم ياوران السُّلطان حسن الشركسي[36]، ليتمَّ بعدها عقد جلسة للسُّلطان والصَّدر الأعظم محمود باشا رفقة بعض الوزراء، ناقشت أوضاع البلاد والجيش والظروف الماليَّة الصَّعبة بسبب ثورة الهرسك[37]، وبعد عرض مطالب الشَّعب رفض السُّلطان مطالب فصل بعض الوزراء بقوله: "المملكة لي، وأنا وحدي القاضي الحُرُّ في أمرها"[38]، وبعد طرد الوزراء اختار الانقلابيُّون المتآمرون، التّوجُّه إلى شيخ الإسلام "خير الله"، وبعثوا إليه بالسُّؤالين: "متى لم يعُد السُّلطان قادرًا على الملك هل يجوز خلعه شرعًا؟ ومتى بدَّد الأموال وأوجب فقر شعبه بملاهيه الذّاتية هل يجوز

خلعه شرعًا؟"، وكان الجواب: "بعونه تعالى في 5 جمادي الأولى/29 أيار 1876م، نعم يمكن أن يُخلع السُّلطان إذا خرَّب بلاده بإصراره وإسرافه، لأن السُّلطان يجب أن يكون أبًا لرعيّته، لا ظالمًا لها سامحه الله، إنَّه العظيم الجبَّار"[39].

وفيما كان السُّلطان عبد العزيز يستعدُّ للانتقام، أرسل الصَّدر الأعظم محمد رشدي مكتوبًا سريًّا قصيرًا إلى الأمير مراد أفندي: "غداً ستكون السُّلطان"، كما أصدر أوامره السريّة إلى مركبي نقل كبيرين استعدادًا للسَّفر، وأعطى لكل قُبطان منهما أوامر مختومةٍ لا يُفَضُّ خَتمُهُمَا إلَّا بعد اجتياز مسافة عِشرُون ميلاً في عرض البحر، وأصدر وزير الحربيَّة أوامرًا لرئيس الحرس السُّلطاني المعروف بإخلاصه للسُّلطان، أن يسافر بجنوده في الحال على المركبين، فأطاعا ظنًّا منهما أنها أوامر السُّلطان، ولم يكونا يعلمان أنها أول حركة في الدسيسة لخلع عبد العزيز، كانت حادثة الانقلاب من تدبير وتخطيط مدحت باشا ووزير الحربيَّة رديف باشا، وقد أكَّد مدحت ذلك في المجلس السرِّي، الذي عُقِدَ في السِّر عسكريَّة بعد الخروج من لقاء السُّلطان، حيث شرح مقاصده من خلع عبد العزيز بقوله: "إن الحزم يمنع سفك الدم، يجب أن نستعمل الحزم والعجلة، والذين يتَّبعون مشُوراتي يُعلنوا ذلك. يجب ألاَّ يبقى عبد العزيز سُلطانًا"[40].

يقدم سركيس وصفًا لكلِّ أحداث الانقلاب على السُّلطان عبد العزيز، وإلى غاية جلوس السُّلطان مراد الخامس في 8 ربيع الآخر 1293هـ/3 ماي 1876م، هذا الأخير الذي تلقَّى رسالةً من السُّلطان المخلوع عبد العزيز يترجَّاهُ فيها نقله مع حريمه من (قصر سيراجيلو)، إلى (قصر جيراغان) ولاحقًا وبطلبه أيضًا إلى (قصر بيكلر بي) على شاطيء البوسفور الآسيوي[41]، وبعد مرور خمسة أيام من الحوادث السَّابقة، تملّك السُّلطان عبد العزيز الأرق الشَّديد، وانقطع عن الأكل، وبعد أن تبادل الحديث مع السُّلطانة الوالدة وزوجته مهري هانم في الغرفة، طلب منهما الخروج ليبقى وحده، وطلب من زوجته مرآة ومقص لتزيين لحيته، وكانت هاته آخر عبارة لفظها ثم أوصد الباب الفاصل بين "السلاملك" و"الحريم"، ولم يُعرف حق الآن حقيقة ما جرى بعدئذٍ حين وُجد عبد العزيز مُلقى على الدِّيوان لا حراك به، والدَّم قد ستر جسمه ولا يزال يتدفَّق من أوردة ذراعيه ومعصميه وقدميه، وقد أفاد إسماعيل بك حارس السُّلطان، الذي كان أول من نبّه إلى الخطر، أنه كان قد تحوّل عنه، وقبل أن يتمكّن منه، كان قد قطع أوردته، وهذه خلاصة قصة الموت، ويقال أنها القصة الحقيقية، ممّا سبق يتّضح أن سركيس، يميل هنا إلى قصَّة انتحار السُّلطان[42]، يؤكد قوله: "وإذا فرضنا وجود العزم على قتله، فلا يحتمل أن يُفتك به على هذا النَّمط الفظيع"، ويضيف: "ولا يُحتمل أيضًا صحَّة ما حدث من أن بستانيًا يتبرَّع بنفسه ويقول أنَّه هو الذي قتله، فإنما فعل ذلك ليجُرّ الويل إلى آخرين من الرِّجال العظام (يقصد مدحت باشا)"، ويضيف أيضاً: "على أن

أحد المؤرخين الانجليز يرتإي أن عبد العزيز قتل نفسه بيده، واعتمد في زعمه على تقارير الطَّبيبين الانجليزيين الدكتور "ديكسون" طبيب السفارة الانجليزية، والدكتور "ميلينجين" وقد فحصا جثته"[43].

بعد أيامٍ من موت (مقتل) السُّلطان عبد العزيز توجّه الضَّابط حسن الشَّركسي -بعد إطلاق سراحه- مُدجَّجًا بالسِّلاح لمجلس الوزراء المنعقد في بيت مدحت باشا، وقام بإطلاق الرصاص على حسين عوني باشا[44] فأرداه قتيلًا، وأثناء ذلك هرب الجميع، باستثناء راشد باشا الذي تسمَّر في كرسيه، فأطلق عليه النَّار أيضًا وأرداه قتيلاً، أما أحمد باشا فتشاجر معه وتمكَّن من الهرب في النّهاية، ثم ما لبث أن حضر الجُند وألقوا القبض على الشَّركسي، ونُفِّذ فيه حُكم الإعدام شنقًا[45].

رابعا. السُّلطان مراد وجلوسه على العرش (1293هـ/1876م): السُّلطان مراد هو ابن السُّلطان عبد المجيد خان، ولد في 24 رجب 1256هـ/21 سبتمبر 1840م، من أمٍّ شركسيَّةٍ، وكان يناديه والده "مرادم" (يامرادي)، وقد ظهرت عليه مخايل النَّجابة والذَّكاء منذ طفولته، حيث تعلَّم على يد كل من "فريد أفندي وعمر أفندي"، حتى صار من كَتَبَةِ اللغة التركية، وله فيها أشعارٌ ومقاماتٌ، وتعلّم اللغة العربية على يد الشَّيخ "حافظ أفندي"، كما بدأ تعلُّم اللُّغة الفرنسية في الرابعة عشر من عمره، على يد الصدر الأعظم "أدهم باشا"، ثم "مراد أفندي كامل باشا" و"الموسيو كاردي"[46]، كان مراد وَلِعًا بالموسيقى، بل كان من المؤلّفين فيها، وامتاز بحريّة أفكاره[47]، إلى درجة أنه انتظم في سلك الماسُونيَّة، وكان يذهب لمحافلها سرًّا، ورغم ذلك كان لطيفًا محبوبًا حليمًا طويل الأناة، إلا أن سياسة الحَجر التي اتّبعها سلاطين آل عثمان أثّرت عليه، حيث لم يتمكّن من الوقوف على عادات الأمم[48]،كما كانت له رؤية خاصّة حول التَّعليم وأهميَّة إصلاحه، حيث رأى أنَّه من الواجب أن يكون إلزاميًّا ومجانيًّا، ودون تدخُّل رجال الدِّين، وأن يجمع المسلمين والنَّصارى واليهود كإخوة.

كان مراد أفندي نائمًا ليلة 25 ربيع الآخر 1293هـ/ 20 ماي 1876م حين أيقظه حسين عوني باشا، وأخبره بخلع عمه، وأنه هو وريثه الشَّرعي، وانطلق به نحو السِّر عسكرية حيث كان في استقباله الصَّدر الأعظم مدحت باشا، وشيخ الإسلام، وفي الحال قرأوا قرار خلع السُّلطان عبد العزيز، ونادوا بولي العهد مراد أفندي سلطانًا[49]، وفي أوَّل جمعةٍ بعد جلوسه، خرج في حفلة السَّلاملك[50]، وشارك عُمُوم العثمانيين الفرح بالسُّلطان الجديد، وهم ينادون (فليحيَ السُّلطان مراد)، وهو نِداءٌ لم يُسمع للسُّلطان عبد الحميد لأنهم لا يرونه ولا يراهم، "..وبلغ من فرح الأُمَّة العثمانيَّة أن الشَّعب أراد أن يجُرَّ عربة السُّلطان بدلاً من الخيل، ولم يرد في تاريخ الدَّولة العثمانيَّة مثل هذا الفرح"[51].

لقد تعهَّد السُّلطان مراد، لعبد العزيز بِحُسْنِ المعاملة، ولمّا بلغه خبر موتِهِ، صاح بأعلى صوته "خُنتني يا حسين عوني، وقد ألبستموني ثوب عارٍ لا يفنى، لأنّني تعهَّدتُ له أن أحفظ حياته، فيا للعار"، وأوقع مراد التُّهمة على عوني ورديف باشا، وكان يأبى أن يصدِّق أن عبد العزيز قد انتحر، ومنذ ذلك الوقت وهو يُعاني من حُزنٍ شديدٍ، فكان يبكي مرارًا، واستولت عليه السُّويداء، وأصبح منذ ذلك اليوم غير مسؤولٍ عما حدث، لأنه كان يُكرّر قوله: "أريد أن أستقيل أو أذهب إلى فرنسا أو ايطاليا التماسًا للراحة والعافية"، واستلم زمام السُّلطة إذ ذاك مدحت باشا، رشدي باشا وشيخُ الإسلام خير الله أفندي، وأَجَّلُوا حفلة السُّلطان في جامع السُّلطان أيوب، إلى شهرين بالتّسويف والتّأخير، ونَشَرُوا إشاعة مرض السُّلطان بالحُمَّى، حيث ظَلَّ مرضُهُ الحقيقي غير معلومٍ، إلى أن أذاعته جرائد أوربا[52].

وبعد انتشار خبر مرض السُّلطان، فاوض مدحت باشا وليُّ العهد عبد الحميد أفندي، في مسالة تولّي كَفَالة المُلك إلى أن يُشفَى شقيقه فرفض، فسأله مدحت إن كان يقبل أن يكون سُلطانًا ومرادٌ حيٌّ يُرزق، فأجابه بالقبول، إذا كان لا أمل من شفائه. ليتمّ عقب ذلك استدعاء الدكتور "ليورسدوف" رئيس مستشفى المجانين في فيينا، والذي تعهَّد أن يشفي السُّلطان في شهرين، لكن وفيما كان النّاس يترقّبُون شِفاء السُّلطان، طرأ ما يُعجِّل في خَلعِهِ، ولعل السّبب كان في الخلاف بين مدحت باشا، والصَّدر الأعظم رشدي باشا حول مسألة تركيا الفتاة، ومسألة الضّرب والجبل الأسود[53]، فطُلِبَ من شيخ الإسلام خير الله أفندي إصدار فتوى الخَلع، وتسلّم عبد الحميد عرش السَّلطنة العثمانية، فيما تمّ نقل مراد الخامس من سراي "طوملم بهجة" إلى سراي "جيراغان"[54].

خامسا. السُّلطان عبد الحميد الثَّاني (1293-1327هـ/1876-1909م): يختتم سركيس كتابه بلمحات عن عهد السُّلطان عبد الحميد، الذي يصفه بأنه كان ضعيف الصِّحة والجسم، أسمر اللون ولد لأم أرمينيَّة، وبدأ أول دروسه مع أخيه مراد تحت رعاية والده عبد المجيد، وقد اكتفى بالقرآن الكريم واللغة التُّركيّة، إضافةً لِتَعَلُّمِ بعض مبادئ الفرنسية، من خيَّاطةٍ بلجيكيَّة تدعى "فلوره كورديه"، والتي أقنعها بالإسلام وجعلها بين حَرَمِهِ[55]. وبعد تولّيه عرش السَّلطنة، كانت حاشيته وراء تشدُّدِه والتّضييق على أخيه، وكُلُّ من يُتّهم بالانتماء إليه بدعوى المؤامرات ضدّه.

وفي 18 شعبان 1298هـ/16 جويلية 1881م، وبعد خمس سنواتٍ تقريبًا من جُلُوس السُّلطان عبد الحميد الثّاني على العرش، تمَّ إثبات الحكم على المتهمين بمقتل السُّلطان عبد العزيز، وصادق مجلس التّمييز على حُكم دائرة

الحقوق، وأعلنت جريدة (الوقت) رسميًا أن المحاكمة ستكون علنيَّةً، وفعلاً عقدت أول جلسة[56] وتَرَأَّسَهَا سُرور أفندي، وثلاثة قضاة وبحضور بعض السفراء وكبار رجال الدولة[57]، وقد قرأ كاتب المحكمة أوراق الدعوى في ثلاث ساعات، ضد من دعا للقتل وهم: جلال الدين باشا، نوري باشا، مدحت باشا، ومحمد رشدي باشا وخير الله أفندي والسلطانة والدة مراد، وكذا المتَّهمين بإجراء القتل فعلا: فخري بك ومصطفى الهلوان[58]، مصطفى الجزائرلي، الحاج أحمد آغا، نجيب بك، علي بك، سعيد بك ورضا بك، كما جرى استنطاق المتَّهمين، فاعترف بعضهم وأنكر بعضهم الآخر، كما قدَّم الشُّهود شهاداتهم[59].

وفي الثاني من رمضان 1298هـ/ 29 جويلية 1881م اجتمع مجلس المحكمة، وبعد الاستماع مُجدّدًا للشُّهود الذي لا يُحصى عددهم، وبعد جلسةٍ ثانيةٍ وبناءً على إشارة شيخ الإسلام خير الله أفندي[60]، تمَّ تلاوة الحكم المبني على الإثبات والشَّهادة المقرَّرة[61]، وأخذ بعدها الذين أنكروا اشتراكهم في القتل يعترفون، بإلقائهم الذَّنب بعضهم على بعضٍ[62]. يقول سركيس: "لقد أظهرت المحاكمة العلنيَّة كيفيَّة مقتل السُّلطان، ومنها يظهر أن السُّلطان عبد الحميد الثّاني كان عادلاً في أول أيام ملكه، ولا أدري ما الذي طرأ عليه هذه الأيام"[63]؟

ينقل سركيس أيضا في كتابه الكثير من الحوادث المهمَّة التي جرت في دمشق الشَّام، والتي كانت سببًا في عزل مدحت باشا عهد السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، وإلقاء القبض عليه ومحاكمته لاحقًا، لقد أراد مدحت باشا بعد توليه إدارة سوريا، أن يقوم بما عجز عنه في الأستانة، بأن يجعل منها نظير مصر ويستقل عن الدولة العثمانية، وأراد قبل ذلك جس نبض وميولات الأهالي استعداد للثورة ضد الحكومة التركية، حيث اختار حوله بعض الرجال كأحمد مهدي أفندي الأيوبي، وحسين فائز أفندي المكتوبجي[64]، وبدأ في دعم الجمعيات السرية التي كانت تنشر الإعلانات، حيث انتشرت يومئذ قصائد تُحرّض العرب ضد الأتراك، كالقصيدة السينية الشهيرة، والتي جاء في مطلعها[65]:

دع مجلس الغِيد الأوانس وهوى لواحظها النَّواعس
وأَسِلِ الكُؤوس يُديرُها رشا كغُصنِ البان مائس
ودع التّنعم بالمطاعم والمشارب والملابس
أيُّ النَّعيم لمن يبيت على بساط الذُّل جالس
ولمن تراه بائساً أبداً لذيل التُّرك بائس

وقد كان لانتشار تلك القصائد والمنشورات صدى في البلاد، حيث أرسلت التلغرافات إلى الأستانة، وازداد عدد البوليس السري، وألقت الحكومة القبض على كثير من الشباب، وخلاصة القول أن الدولة العثمانية علمت من ذلك أن وراء الأكمة ما وراءها، أما مدحت باشا فكانت أوامِرهُ تَصدُرُ مُشدَّدَةً إلى المأمورين للتّضييق على الجمعيات السرية، لكن روحه كانت تنفخ فيهم نار الحياة[66].

بعدها تم استدعاء مدحت باشا[67]، والذي بدأ حديثه: "إنني أعدُّ نفسي سعيدا جدا، إذ دُعيت لأبرر نفسي أمام جلسة علنية."[68]، وفي رده على سؤال لرئيس الجلسة (كريستوفوريدس) موجّه لمحمود باشا عن اللجنة التي تشكلت في السراي بإرادة السلطان مراد، واقتضى أمره أن يجري كل شيء بإدارتها ومعرفتها، والتي تشكلت من محمد رشدي، محمود جلال الدين، مدحت باشا، حسين عوني وخير الله أفندي، قال بأنه لا علم له بوجود أي لجنةٍ، وأنه لا يعترف في ذلك الحين إلا بمجلس الوزراء، وألاَّ علاقة له بأمر مقتل السلطان، الذي لم يسمع بأمره إلا عند توجّهه لحضور جلسةٍ في الباب العالي[69].

يستعرض المؤلف في آخر كتابه (ص ص149-158)، ترجمةً لنصِّ الرّسالة التي بعث بها السلطان المخلوع مراد من مقر إقامته (سجنه) بقصر جيراغان، إلى أخيه السُّلطان عبد الحميد الثاني، وقد كُتبت كما يقول سركيس: "على قطع أوراق منثورة وبأواخر أقلام مكسورة"، والتي وصلته أوائل شهر أوت، بعد رحلة صعبة وطويلة، يُحجِمُ المؤلف عن ذكر تفاصيلها، لأن في إفشاء ذلك موت كثيرين، وأهم ما تُنَاقِشُهُ خطأ حَصْرَ إدارة الدّولة بِشَخْصِ السُّلطان[70]، وإلغائه دستور 1293هـ/1876م والقانون الأساسي[71]، وفضّه مجلس المبعُوثان، ويطلب من السُّلطان عبد الحميد تحوير شكل الإدارة إلى الأصول الشُّورية، باعتبارها أقدس مبادئ الإسلام، والعودة لتطبيق القانون الأساسي، حيث يقول: "أخي: الزمان يمرُّ مَرَّ السَّحاب والحال كثيرة الخطارة وليس لك سبيل إلى السّلامة والنّجاح، إلا بإعادة القانون الأساسي الذي طنطنت به الجرائد أعوامًا كَأَنَّهُ إِحسَانٌ سُلطَانِيٌ، ثمّ أُلغي لِغَيرِ سَبَبٍ إلاّ غاية البقاء على الاستبداد، فَاجْمَعْ المبعُوثان وأَحيِ قُلُوبَهُم المُنكسِرة بالتّلطيف، وَاسْعَ في تحسين الإدارة بما أمكن من السُّرعة.."[72]، ويختتم مراد رسالته بنصيحة لأخيه السلطان عبد الحميد: "أخي: اتّبع المنهج الذي أُبيِّنُهُ لك، واعلم أنّك إذا لم تفعل فإنك تسُوقُ الدّولة والأُمّة من مصيبةٍ إلى أعظم، حق تؤدي بها المحو والانقراض، وتُثبّتَ في تاريخنا نقطة سوداء لا تُمحى حق يوم القيامة"[73]، وتعكس الرسالة سعة إطلاع مراد على الأوضاع الدّاخلية والخارجية للدّولة العثمانية في تلك الفترة، وهو أمرٌ يتناقض ووضعه الصحي والسّياسي، وهو المعزُول عن العرش بسبب مرضه العصبي[74]، رغم شفائه منه بعد فترةٍ وجيزةٍ[75]، والمحجورِ عليه في "سراي جيراغان".

سادسا. خاتمة

يعتبر كتاب "سرُّ مملكة" وبالرغم من خلفيَّة مؤلّفه، وتحامله في كثيرٍ من الأحيان على شخصيَّة السُّلطان عبد العزيز، مصدرًا من المصادر المهمَّة في دراسة أحداث الدَّولة العثمانيَّة خلال النِّصف الثَّاني للقرن 13هـ/19م، ومن أهم الاستنتاجات التي توصَّلت إليها الدِّراسة:

شهدت الدَّولة العثمانيَّة منتصف القرن 13هـ/19م تدهوراً في أنظمة حُكمها، ونتيجةً للخسائر العسكريَّة التي مُنيت بها، اضطرّت لتوقيع عدة معاهدات، أدركت من خلالها ضرورة الإصلاح، وبعد فشل محاولة تجديد المؤسَّسات من الداخل وفقًا للثّوابت الإسلاميَّة، لجأ المصلحون إلى الحل الأسهل وهو استيراد النَّماذج الأوربيَّة، ما سهَّل تَدَخُّل الدُّول الغربيَّة في شُؤون الدَّولة.

واجه السُّلطان عبد العزيز منذ اعتلائه العرش الكثير من الاضطرابات، أهمها الحركات الانفصاليَّة في البلقان، إضافة للاضطرابات في بلغاريا، البوسنة والهرسك، الجبل الأسود وجزيرة كريت، وهي أحد المشاكل الكبرى والعويصة التي واجهت الدَّولة العثمانيَّة، وعرقلت من جُهودها الإصلاحيَّة، كما كانت وسيلة للدول الأوربيَّة خاصةً روسيا، لمزيد من الضَّغط والتَّدخُّل.

واصل السُّلطان عبد العزيز سلسلة الإصلاحات، وكان السُّلطان العثماني الوحيد الذي قام بزيارات سياسيَّة خارجيَّة، كزيارته لمصر سنة 1279هـ/1863م، وزيارته لعديد الأقطار الأوربيَّة، بهدف إظهار قوَّة ونفوذ الدَّولة العثمانيَّة، إضافةً لاهتمامه بتعزيز العلاقات مع روسيا، ما أثار مخاوف الدُّول الأوربيَّة، فكانت سياسته الداخليَّة والخارجيَّة، الدَّافع الأبرز وراء عزله والمؤامرة على قتله، وأظهرت مدى التَّغلغل الأوربي والخيانة الداخليَّة لرجال الدَّولة.

بذل السُّلطان عبد العزيز جهودًا إصلاحيَّةً كبيرةً، رغم الظُّروف الماليَّة الصَّعبة للدَّولة، ومن بينها تلك المتعلِّقة بالجانب العسكري وتطوير الأسطول العثماني، إضافةً للإصلاحات السِّياسيَّة، وإصدار قانون الولايات سنة 1280هـ/1864م، دون أن ننسى الجانب التّشريعي وإصدار (مجلة الأحكام العدليَّة) المقتبسة من أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة، والتي تعتبر من أكبر الإنجازات القانونية التي عرفتها الدولة العثمانيَّة.

لقد اتُّهِمَ السلطان عبد الحميد أيضاً، بالظلم والاستبداد والتعسُّف والبطش، لكنه في الحقيقة كان كأي حاكم في تلك الفترة، فهو لم يكن ملاكًا، ولم يكن معصومًا لأنه لو كان كذلك -كما يؤكد المؤرخ إحسان حقي- لما بقي على العرش مدَّةً طويلةً، في زمن كان الملوك أُلعُوبةً بأيدي الجند.

هكذا وبعد مُضي أزيد من قرنٍ على خلع السُّلطان عبد العزيز ومقتله، وخلع السُّلطانين مراد وعبد الحميد، وبعد أن ذهب رجال تركيا الفتاة والاتحاد والتَّرقي من بعدهم، وبعد ضياع الدَّولة العثمانيَّة، لم يَعُد للمؤرِّخين الغربيين المتحاملين ومن والاهم، بعد أن هدموا بناء الدَّولة العثمانية، مبالاةٌ بما قيل ويُقال عن سلاطين النِّصف الأخير من القرن 13ه/19م، وعن غيرهم من سلاطين آل عثمان، لذلك فقد بدأت الحقائق تتكشّف على ضوء الواقع والحقيقة، وعلى أساس المعطيات العلميَّة الراهنة، وليس على ضوء الأغراض والغايات الخاصَّة، ليتبين أن كثيرًا مما ما قيل عن السُّلطانين عبد العزيز وعبد الحميد كان نوعًا من الدِّعاية لا أكثر.

وفي الأخير يمكن القول أنه ورغم الدّراسات الكثيرة والمتنوّعة، التي تناولت واقع الدَّولة العثمانيَّة خلال النِّصف الثَّاني للقرن 19م، إلَّا أنَّ مجال البحث يبقى مفتوحًا، باعتبار أن كثير من تلك التحوُّلات، لا تزال تداعياتها وانعكاساتها إلى اليوم.

الهوامش:

1) خير الدين الزّركلي، معجم الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002، ج3، ص118.

2) سليم البستاني (1264-1301هـ/1848-1884م): ابن بطرس البستاني، واحدٌ من أعيان الطَّائفة المارونيَّة في جبل لبنان، تلقّى تعليمه على يد الشّيخ ناصيف اليازجي، وفي سنة 1278هـ/1862م عُيّن تُرجماناً لقنصلية الولايات المتحدة الأميركيَّة، ليعتزلها سنة 1288هـ/1871م. من آثاره: ترجمة كتاب (تاريخ فرنسا الحديث)، تاريخ نابليون بونابرت في مصر وسوريا، وأنجز بعد وفاة والده بعض أجزاء (دائرة المعارف). ينظر: أدهم الجندي، تحفة الزَّمن بترتيب تراجم أعلام الأدب والفن، دار المقتبس، ط1، 2015، ص ص373-375. ينظر أيضا: جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشَّرق في القرن 19م، مؤسسة هنداوي للتَّعليم والثَّقافة، القاهرة، د.ط، 2012، ج2، ص37.

3) أشارت الكثير من المصادر التّاريخية التي تتناول حرّية الصّحافة والرّقابة في الرُبع الأخير من القرن 13هـ/19م في الدِّيار الشّامية، بأن الرّقابة كانت تُطبّق بشدّةٍ أثناء حُكم السُّلطان عبد الحميد الثّاني، والذي لُقِّب بعدوِّ الصّحافة والصُّحفيين، حيث كان لا يستطيع الصحفي نشر العبارات التي يُشتمُّ منها رائحة السّياسة، بما في ذلك آيات وأحاديث الظلم، الإصلاح، جمعية، رشاد، دستور ...الخ. للمزيد ينظر: سليم سركيس، غرائب المكتوبجي، تر: أ.كودج، طبع جريدة المشير، مصر، 1896، ص ص5، 9، 10، 11.

4) تركيا الفتاة: يرجع ظهورها إلى سنة 1282هـ/1865م، بفضل فئةٍ من المثقّفين العُثمانيين الشُبّان على رأسهم مصطفى فاضل باشا (1244-1292هـ/1829-1875م)، كما كان أغلب نُشطائها من مُوظّفي الحكومة في مكاتب التَّرجمة، الذين حاولوا الحدَّ من سُلطة السُّلطان المطلقة، وأطلقوا على أنفسهم بعض الوقت (العثمانيون الجدد أو الشَّباب العثمانيين). للمزيد ينظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التَّاريخ العثماني، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2003، ص225؛ محمد روحي الخالدي، أسباب الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة، تق وتح: خالد زيادة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السِّياسات، بيروت، ط2 مزيدةٌ ومنقَّحةٌ، 2019، ص ص81-83.

5) يوسف اليان سركيس، معجم المطبوعات العربيَّة والمعرَّبة، مكتبة الثَّقافة الدِّينيَّة، القاهرة، ج1، ص1021.

6) وَصَفَتهُ بعض الجرائد العثمانية بالخائن، كما يؤكد هو نفسه ذلك في رده عليهم:"..يقول بعض الجُهلاء أنّني خائنٌ للدولة.. وأقول أنا أنّني غيرُ خائنٍ، فَصَدِيقُك من صَدَقَكَ لا مَنْ صَدَّقَكَ، وإنَّني لا أَطْعَنُ بدولتي حُبًّا بِسِوَاهَا، بل غِيرةً عليها، ورغبةً في إصلاحها.". ينظر: سركيس، غرائب المكتوبجي، مرجع سابق، ص60.

7) الزركلي، مرجع سابق، ص118.

8) غرائب المكتوبجي: كتاب جامع لأخبار المكتوبجي (مراقب جرائد سوريا)، ووصف الصُّحف في الدَّولة العثمانيَّة. ينظر: سركيس، معجم المطبوعات العربيَّة والمُعرَّبة، مرجع سابق، ص1022.

9) مارست الدَّولة العثمانيَّة عهد السُّلطان عبد الحميد الثَّاني رقابةً على الصَّحافة والطِّباعة، إلَّا أنَّها كما يُؤكِّد المؤرخ "شو" كانت اعتباطيَّة ولم تتَّسم بالفعاليَّة، حيث يقول: "إنّ غزارة المطبوعات غمرت الرقابة، ممّا جعل تطبيق القوانين الرقابيَّة متقطعًا واعتباطيًا، وبشكل أخرق، تعُوزُه البراعة، ولكنه خالٍ من (الفعاليَّة) التي أصبحت تَسِمُ جُهود الرَّقابة حول العالم حديثًا..ما جعل هذه الحقبة واحدةً من أكثر الحقب الثَّقافيَّة حيويَّةً في التَّاريخ العثماني، ولا يبزُّها إلا ما جاء بعدها". للمزيد ينظر:
Stanford J. Shaw & Ezel Kural Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Cambridge University Press, 2002, Vol .II , pp.251-252.

10) محمد رضوان؛ محمد ديب الأنظامي، "دائرة المعارف صحف عربية (2) 1822-1914"، مجلة الفيصل، ع192، دار الفيصل الثقافية، الرياض، 1992، ص121.

11) محمد رشاد الدين أفندي (1909-1918م): ابن السُّلطان عبد المجيد، ظل وليًّا للعهد طيلة مُدَّة سَلطَنَةِ أخيه عبد الحميد ، وقد تولَّى العرش بعد إزاحة الاتّحاديين لأخيه عبد الحميد، وذلك بعد أن رضخ ووافق على كل أعمال الاتحاد والتَّرقي، وتنفيذ الحُكم المشرُوطي. ينظر: محمد جميل بيهم، أوَّليَّات سلاطين تركيا المدنيَّة والاجتماعيَّة والسِّياسيَّة، مطبعة العرفان، صيدا لبنان، د.ط، 1931، ص ص5354؛ ينظر أيضًا: يلماز أوتونا، تاريخ الدَّولة العثمانيَّة، تر: محمود سلمان، مر: محمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، د.ط، 1990، مج2، ص ص203-204.

12) سليم سركيس، سرُّ مملكة: تاريخ حياة عبد العزيز وقتله، ولاية مراد وخلعه، محاكمة مدحت باشا وأعوانه، ج1، مصر، 1895، ص147.

13) سركيس، معجم المطبوعات العربيَّة والمعرَّبة، مرجع سابق، ص ص1021-1022.

14) حسن بك الجركسي: ابن إسماعيل بك، أحد أعيان الجراكسة المهاجرين من بلادهم، بعد دخولها ضمن أملاك روسيا، وكان "ياوراً" ليوسف عزّ الدّين أفندي نجل السُّلطان عبد العزيز، كما أنَّه شقيق إحدى زوجات السُّلطان (مهري هانم). ينظر: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدَّولة العليَّة العثمانيَّة، تح: إحسان حقي، دار النّفائس، ط1، 1981، ج1، ص583؛ جرجي زيدان، تراجم مشاهير القرن 19، مطبعة الهلال، القاهرة، ط1، 1922، ج1، ص370.

15) سركيس، سر مملكة، مصدر سابق، ص ص5-7.

16) نفس هذا الكلام يؤكده المؤرخ التركي اوزتونا بقوله: "..كان مثل أخيه الكبير كريمًا ومُسرفًا"، لكنه كان أيضًا ذو ثقةٍ شديدةٍ بنفسه، ويتميّز بسَطوَةٍ ومهابةٍ ووقارٍ، يَعشَقُ الجيش، ووقف بنفسه لإعلاء شأن الدَّولة، على خلاف أخيه السلطان مراد. ينظر: أوزتونا، مرجع سابق، ص66.

17) سركيس، مصدر سابق، ص6.

18) يؤكِّدُ هذا أيضًا بروكلمان بقوله: "..أعلن رغبته في الاكتفاء بزوجة واحدة"، لكن ذلك ربما في البداية فقط إذ تزوَّج السُّلطان عزيز خان في حياته ككل بخمسة "قادين" أفندي (وهي الجارية التي يعتقها السُّلطان بعد أن يتزوجها)، ولم تقم علاقةٌ بينه وبين أيَّ جاريةٍ أخرى، حيث كانت زيجته الأولى سنة

1272هـ/1856م، أمّا الأخيرة فكانت سنة 1290هـ/1873م. ينظر: بروكلمان، مرجع سابق، ص574. ينظر أيضًا: اوزتونا، مرجع سابق، ص85.

19) نفسه، ص ص7-8.

20) الصَّدر الأعظم Sadriazam: كان يُعدُّ أعلى المناصب داخل الدَّولة العثمانيَّة بعد السُّلطان، يتولّى عددًا من المهام منها إدارة شؤون البلاد، ما يضع النِّظام الإداري والدِّيني والأمَّة العثمانيَّة تحت إمرته، وصفه الرَّحالة الفرنسي تيفينو في مذكراته: «كل قضايا الدَّولة في يده.. يترأس ديوان الدَّولة، ولا ينقُصُهُ إلاَّ اللَّقب "لقب السلطان"». للمزيد ينظر: مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانيَّة دراسة في تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانيَّة من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات1517-1923م، دار غريب، د.ط، القاهرة، 2000، ص74؛ ينظر أيضًا:

Jean Thévénot, Les relation d'un voyage fait au levant, Préface, Paris, 1664, p.123.

21) محمد فؤاد باشا: من أبرز ساسة الإصلاح المؤسَّسي والاقتصادي والاجتماعي في الدَّولة العثمانيَّة، ولد عام1230هـ/1815م بمدينة استانبول، درس الطب والتحق بالجهاز الطبي، لكنه غيّر وجهته نحو مكتب التَّرجمة سنة 1253هـ/1837م، ثم مُترجمًا للسِّفارة العثمانيَّة في لندن سنة 1256هـ/1840، ليتولَّى بعد عدَّة سنوات منصب وزير الخارجية لأربع مرَّاتٍ متتاليةٍ في الفترة (1268-1286هـ/1852-1869م)، كما شغل منصب الصَّدارة في الفترة (1277-1283هـ/1861-1866م)، وعضوًا في المجلس الأعلى للتَّنظيمات. توفي سنة 1286هـ/1869م. للمزيد ينظر: بول دومون، فترة التَّنظيمات 1839-1878م، في تاريخ الدَّولة العثمانيَّة، إشراف روبير مانتران، تر: بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة، ط1، 1993، ج2، ص ص69-70.

22) هي وصيةٌ كتبها الصّدر الأعظم فؤاد باشا قبل وفاته للسُّلطان، يحثُّه فيها على ضرورة السَّير في طريق الإصلاحات، وضرورة الاقتباس من الغرب، ومما جاء فيها: "..إنّه محكومٌ على دولتكم بالموت لا محالة، ما لم تكن ماليتها كَمَالِيَّةِ انجلترا، ومَعَارِفَهَا كَمَعَارِفِ فرنسا، وعَسَاكِرَهَا كَعَسَاكِرِ رُوسيا، ولأجلِ ذلك يجب تغيير جميع مدارسنا العسكريّة والمدنيّة"، ونصُّ الرسالة يُظهِرُ بوضوحٍ مدى تأثر فؤاد باشا بالحداثة والتطوّر الأوربي. ينظر: سركيس، سر مملكة، مصدر سابق، ص ص8-11.

23) محمد أمين عالي باشا: سياسي ورجل دولة عثماني، ولد في 23 ربيع الأول 1230هـ/5 مارس 1815م في استانبول، دخل الخدمة الحكومية؛ إذ كان يُجيد لغات عدَّة كالإنجليزيَّة والفرنسيَّة، وشغل عددًا من المناصب الرَّفيعة، فقد أصبح سفيرًا لبلاده في لندن (1257-1260هـ/1841- 1844م)، ووزيرا للخارجيَّة خمس مرَّاتٍ منفصلةٍ خلال الفترة (1262-1272هـ/1846-1856م)، كما تولَّى منصب الصَّدر الأعظم خمس مرَّاتٍ أيضًا، ويُعدُّ من رموز حركة الإصلاح العثمانيَّة، وقد مثّل الدولة العثمانيَّة في مؤتمر باريس. توفي في 21 جمادي الآخرة 1288هـ/ 7سبتمبر 1871م. ينظر:

Shaw, Op.Cit, PP.438-439.

24) الخديوي إسماعيل (1279-1296هـ/1863-1879م): إسماعيل بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، كان ذا طموحٍ وإرادةٍ واتجاهاتٍ خاصّةٍ، وعمل خلال فترة حكمه على توثيق علاقاته بالدّولة العثمانيَّة،

إلى غاية خَلعِهِ من طرف السُّلطان عبد الحميد الثّاني سنة 1296هـ/1879م، بعد ضغطٍ من فرنسا وانجلترا، وقد عمل إسماعيل على تطوير الملامح العمرانيَّة والاقتصاديَّة والإداريَّة في مصر، واستحقَّ لقب المؤسِّس الثَّاني لمصر. ينظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى، علاقات مصر بتركيا في عهد الخديو إسماعيل 1863-1879م، دار المعارف، د.ط، 1967، الإسكندرية، ص15 وما بعدها.

25) عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص 30- 34.

26) سركيس، سرُّ مملكة، مصدر سابق، ص126.

27) G. Douin, Histoire du Règne du Khédive Ismail, Roma, 1933, T.1, p.8.
نقلا عن: عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص31.

28) للمزيد ينظر: أحمد صائب بك، وقعة السلطان عبد العزيز، تر: محمد توفيق جانا، المطبعة الهنديَّة، القاهرة، 1319هـ، ص ص36-37. ينظر أيضاً: فريد بك، مصدر سابق، ص ص545-546.

29) للاطلاع على بعض تفاصيل الرِّحلة أنظر: أوزتونا، مرجع سابق، ص71-74؛ ينظر أيضًا: محمد شعبان صوان، يوميَّات السُّلطان الحوادث الهامة في تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ودلالاتها، ابن النديم- دار الرَّوافد الثَّقافيَّة، وهران-بيروت، ط1، 2020، ص89.

30) ثورة كريت 1284هـ/1867م: لم تكن القلاقل في جزيرة كريت ناشئةً عن نقصٍ أو ضعفٍ في الجهاز الإداري، بقدر ما كانت بدافعٍ من اليونانيّين الذي حاولوا ضمَّ الجزيرة "مشروع أنوسيس"، خاصَّةً بعدما أُعِيد بحث وضعها في مؤتمر برلين، حيث منحها عالي باشا سنة 1285هـ/1868م استقلالاً إداريًا أوسع، إلى غاية ضمِّها تحت حكم اليونان عهد السُّلطان عبد الحميد، نتيجة الضُّغوط الخارجيَّة. للمزيد ينظر: أكمل الدين إحسان أوغلى، الدولة العثمانيَّة تاريخ وحضارة الدَّولة والمجتمع والاقتصاد، مركز الأبحاث للتَّاريخ والفنون والثَّقافة الإسلاميَّة باستانبول (ارسيكا)، استانبول، د.ط، 1999، مج1، ص ص120-121.

31) سركيس، سرُّ مملكة، مصدر سابق، ص14.

32) نفسه، ص ص23-24.

33) محمود نديم باشا (1233- 1300هـ/1818-1883م): سياسي عثماني تسلَّم مناصب عدة منها والي دمشق، ووالي طرابلس الغرب، ثم ناظر الخارجيَّة، كما تولَّى الصَّدارة العُظمى مرّتين، وكان شديدُ التَّعصُّب للإدارة القديمة، رافضًا للإصلاحات. ينظر: روحي الخالدي، مصدر سابق، ص93.

34) السَّفطا "السُّوفتاس": هم طلبة المدارس الدينية في الدولة العثمانية، وقد وصل عددهم أواخر القرن الثامن عشر إلى حوالي خمسة آلاف "سوفتاس" في استانبول وحدها، يتابعون دراساتهم لفترة طويلةٍ، ويعيشون أغلب الأحيان في ظروفٍ صعبةٍ جدًا، وعلى عكس العديد من كبار العلماء العثمانيين الذين اقتنعوا بأن مصير الإسلام ومصيرهم أيضا يعتمدان على وجود واستقرار الدولة، والشريعة قد وُجدت للمساعدة على نشر المعتقد الإسلامي لا لتكون حجر عثرةٍ في طريقه، فقد شكَّل طلاب المدارس الدينية خلال تاريخ الدولة العثمانية أرضًا خصبةً للتذمُّر وافتعال المشاكل، وقد نما عدم رضاهم في القرنين 18-19م نتيجة فضائح الفساد في قيادة العلماء، كما شكَّل "السوفتاس" أحد المراكز الأساسية لمعارضة

العديد من الإصلاحات المقتبسة عن الغرب والتي طالت الحكومة والمجتمع العثمانيين. ينظر: أوريل هايد، "موقف العلماء من الإصلاحات في عهد سليم الثالث ومحمود الثاني"، مجلة الاجتهاد، ع45-46، السنة 11، بيروت، شتاء وربيع 2000، ص ص26-29.

34) للمزيد حول الموضوع ينظر:

L.Kinross, The Ottoman Centuries The Rise and Fall of the Turkish Empire, New York, 1977, p.511.

35) سركيس، المصدر السابق، ص ص25-31.

36) كان ظهور العصيان من قبل الهرسك والذي سبق الحرب العثمانيَّة الرُّوسيَّة الأخيرة بسبب الضرائب والظلم والقهر في جِبَايَتِهَا، كما كانت الدُّول الأجنبيَّة خاصَّةً النّمسا المجر وروسيا، وراء التّحرُّك سنة 1292هـ/1875م، والتي طالبت الدَّولة العثمانيَّة إجراء بعض التَّغييرات في الإدارة الدَّاخليَّة مقابل مُساعدتها، وإقناع الصِّرب والجبل الأسود بالوقوف على الحياد. للمزيد ينظر: أنكه لهارد، تاريخ الإصلاحات والتَّنظيمات في الدَّولة العثمانيَّة، نقله إلى العثمانيَّة: علي رشاد، تر: محمود علي عامر، دار ومؤسسة رسلان، دمشق، 2017، ص ص309-310؛ ماجدة مخلوف، تحوُّلات الفكر والسِّياسة في التَّاريخ العثماني رؤية أحمد جودت باشا في تقريره إلى السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، 2009، ص179 وما بعدها.

37) سركيس، سرُّ مملكة، مصدر سابق، ص31.

38) نفسه، ص32.

39) نفسه، ص ص37-38.

40) نفسه، ص ص47-49.

41) يتبنّى بعض المؤرخين قصَّة انتحار السُّلطان، ويُرجِعُون السّبب إلى اختلال قواه العقليَّة، لكنَّ رسالته للسُّلطان مراد قبل وفاته بيوم واحد، لا تدلُّ على أدنى اضطراب عقلي: "بعد اتّكالي على الله تعالى وجّهت اتّكالي عليك، فَأُهَنِّئُكَ بِجُلُوسِكَ على تخت السُّلطة، وأبيّنُ لك ما بي من الأسف، على أَنِّي لم أَقْدِر على أن أَخْدُمَ الأُمَّة حسب مُرادِهَا، فأؤمل أنَّك أنت تَبلُغُ هذا الأرب، وأَنَّك لا تنسى أنّي تشبَّثتُ بالوسائل الفعَّالة لصيانة المملكة وحفظ شرفها، وأوصيك بأن تتذكَّر أنَّ من صَيَّرني لهذه الحالة، هُم العساكر الذين سلَّحتُهم أنا بيدي..". ينظر: علي حسُّون، تاريخ الدَّولة العثمانيَّة وعلاقاتها الخارجيَّة، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1994، ص201.

42) سركيس، المصدر السابق، ص53.

43) حسين عوني باشا (1236-1292هـ/1821-1875م): ولد في ولاية قونية، ودخل المكتب الحربي في الأستانة سنة 1253هـ/1837م، ثم صار ملازمًا، وترقى حتى وصل رتبة فريق، ثم قائمقام السر عسكر، مع مشيرية الأوردي الهمايوني الخاص، ثم سر عسكر عموم الجيوش الشاهانيَّة، وعُيِّن في سنة 1290هـ/1873م صدراً أعظمًا، ليعود بعدها إلى السِّر عسكريَّة، وقد تولّدت عنده فكرة عزل السُّلطان وقتله، بعد أن أبعده إلى إسبرطة. ينظر: فريد بك، مصدر سابق، ص583؛ مذكرات السُّلطان عبد الحميد، مصدر سابق، ص86.

44) سركيس، سرُّ مملكة، مصدر سابق، ص ص61-62.

45) نفسه، ص ص120-121.

46) يقول السُّلطان عبد الحميد عن أخيه مراد عكس ذلك: "كان الأُدباء المناصرون لأخي الكبير السُّلطان مراد الخامس، والذين تناولوني بعد ذلك بالنّقد والتَّجريح، يَهْدِفُون إلى إظهاره بصورة العالم والشّاعر الوطني، حتى يُحبّبُوا النّاس فيه، لكنه –رحمه الله- كان يفتقر إلى العلم والكمال..". ينظر: مذكرات السُّلطان عبد الحميد، مصدر سابق، ص62.

47) سركيس، سرُّ مملكة، مصدر سابق، ص124.

48) نفسه، ص ص133-135.

49) السَّلاملك Selamlik: المراسم التي تجرى أثناء توجُّه السلطان إلى المسجد، ويطلق كذلك على قسم الرجال من المنازل. ينظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانيَّة التَّاريخيَّة، مر: عبد الرازق محمد حسن بركات، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، د.ط، 2000، ص134.

51) سركيس، سرُّ مملكة، مصدر سابق، ص ص135-136.

52) نفسه، ص ص137-139.

53) سمحت الأزمة البلقانيَّة سنة 1875م ومحاولات الانفصال، بتدخُّل الدُّول الكبرى في المسألة "مؤتمر السُّفراء الأجانب في الأستانة" (1293-1294هـ/1876-1877م) واندلاع الحرب بين السَّلطنة العثمانية والصِّرب، وتوتّر العلاقات الرُّوسيَّة-العثمانيَّة، لينضمَّ بعدها الجبل الأسود إلى الحرب، وانتقال الثَّورة قبيل ذلك إلى بلغاريا، حيث جرت مذابحٌ ضدَّ المسلمين وأخرى مضادَّةٌ للمسيحيين. للمزيد ينظر:
Salahi Ramsdan Sonyel, The Ottoman Armenians, London,1987, p.29.

54) سركيس، سرُّ مملكة، مصدر سابق، ص ص139-142.

55) نفسه، ص ص 142-143.

56) ظلَّت المحكمة في انعقاد دائم إلى 29 جويلية 1881م، وهي تستمع لكل المتّهمين، وبلغ عدد المتّهمين خمسة عشر مُتهمًا، في مقدّمتهم السُّلطان مراد الخامس، ووالدته والجارية عرض نياز، رغم أنّهُما لم يمثُلا أمام المحكمة. للمزيد ينظر:
A.De La Jonquiere, Histoire de L'Empire Ottoman Depuis Les Origines Jusqu' a nos jours, Paris, 1914, p.47.

57) سركيس، سر مملكة، مصدر سابق، ص84.

58) جاء في اعترافاته كثيرٌ من تفاصيل حادثة الاغتيال، حيث يقول أن محمود جلال الدين باشا، استدعاه هو ورفيقه مصطفى الجزائرلي، وعيّن لكل منهما مائة ليرةٍ عثمانيَّةٍ كل شهر، إذا قتلوا السُّلطان عبد العزيز مع كتمان الأمر، وأنَّ العمليَّة تمَّت فعلاً بقطع أوردة ذراعيه بِمُوسٍ حادَّةٍ. للمزيد ينظر: سركيس، المصدر السابق، ص88-89.

59) نفسه، ص ص82-83.

60) نفسه، ص104.

61) كان منطوق الحكم كالتالي: " إنَّ المحكمة قد حكمت على مصطفى البهلوان والحاج احمد آغا ومصطفى الجزائرلي وفخري بك وعلي بك ونجيب بك بالإعدام، وفقا للمادة 170 من قانون الجزاء، وعلى محمود باشا ونوري باشا ومدحت باشا بالإعدام أيضا بموجب المادة 45 لأنهم مشاركون للجُنَاة في الجريمة.."، وما إن صدر الحكم حتى التمس السفير الانجليزي "اللورد دافرين" وملكة انجلترا، من السلطان تخفيف الحكم، وبالفعل استجاب وخفّفه إلى السجن المؤبد والنفي إلى الطائف بحق مدحت باشا، لكن ونتيجة المراسلات السرّية بين عبد المطلب شريف مكة، والانجليز لتهريب مدحت باشا من الطائف، تمَّ اغتياله داخل السِّجن خنقاً. ينظر:

Edwin Pears, Life Of Abdul Hamid, London, 1917, p339.

نقلاً عن: قدري قلعجي، مدحت أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1947، ص115؛ صالح علي، مرجع سابق، ص ص 199-201.

62) سركيس، سر مملكة، مصدر سابق، ص116.

63) نفسه، ص ص116، 118، 119.

64) نفسه، ص ص63-64.

65) نفسه، ص64.

66) نفسه، ص ص67-68.

67) يومئذٍ كان مدحت باشا يُباشر عملية الإصلاح في ولاية ازمير، وقبل أمر المحاكمة كان السُّلطان قد أمر قائد فرقة ازمير مع مجموعة من الضباط بتصفيته في سِرّية تامّة، لكن مدحت باشا لجأ إلى القنصلية الفرنسية، وبعث إلى قناصل الدول الكبرى طالبًا التَّوسُّط لدى الباب العالي وحضور المحاكمة، وقد تألفت هيئة محاكمته من خمسة أعضاء ثلاثة مسلمين واثنين من النصارى المشهود لهم بحسن السيرة لدى مؤيّدي الُّسلطان عبد الحميد، أما مؤيّدي مدحت باشا فكانت نظرتهم للمحكمة وكأنها لم تكن، وأن الحكم قد صدر بدون محاكمة. ينظر: أحمد صالح علي، الإصلاحيون في الدولة العثمانية في القرن19م دراسة لإصلاحات مدحت باشا، تق: رأفت غنيمي الشيخ، ط1، المكتب العربي للمعارف، القاهرة، 2017، ص ص192-193.

68) سركيس، سر مملكة، مصدر سابق، ص97.

69) نفسه، ص ص93، 95، 98، 99.

70) ممّا جاء في الرسالة : ".. ولا أُنْكِرُ أَنَّكَ قد اهتممت بجميع الأمور، حتى حَصَرْتَ إدارة الدّولة بِشَخصِكَ، وتوقّفت الأعمال كبيرها وصغيرها على إرادتك، غير أن هذا الفكر مُضِرٌّ بإدارة الدّولة، ولا يمكن لفردٍ ما إتمامه". ينظر: سركيس، المصدر السابق، ص157.

71) كان لمدحت باشا عدة محاولات لإعلان الدستور عهد السلطان عبد العزيز لكنه فشل، كما أعاد المحاولة عهد السلطان مراد خان، ولم يتمكّن أيضًا، لكن بعد تولّيه الصّدارة، وفي ظلّ الضُّغوط الأوربية على الدولة العثمانية، عقد مدحت مؤتمر لسفراء الدول الأوربية باقتراح من انجلترا، وشكّل لجنة لوضع مشروع الدستور تحت اسم "قانون أساسي"، لكن السلطان عبد الحميد لم يُنفِّذْهُ

لمعارضته الإسلام، وتعاظم نفوذ العناصر المسيحيَّة ورجال تركيا الفتاة. ينظر: حسون، مرجع سابق، ص251.

72) سركيس، سر مملكة، مصدر سابق، ص157.

73) نفسه، ص158.

74) يشير المؤرخ علي حسون إلى أنَّه من نصِّ الرِّسالة ".. تلك الرسالة التي ضمَّنها مُختلف أنواع الحُكم"، يتبيّن أن التُّهمة التي أُلصقت بمراد، من حيث الاضطراب العقلي والعصبي غيرُ صحيحةٍ، كما يُثبت الدَّليل والواقع عدم شكايته سابقًا قبل عزله، من أيّ خللٍ عصبيٍ أو نفسيٍ، وقد نفى ذلك في رسالته. ينظر: حسون، مرجع سابق، ص207.

75) أوزتونا، مرجع سابق، ص88.

n, Les Relation d'un Voyage Fait au Levant, Préface, Paris, 1664.